حوليات الجامعة التونسية

مجلة للبحث العلميّ
تصدرها كليّة الآداب والفنون والانسانيّات بمنّوبة

مجلّة جامعية محكّمة

أسّست سنة 1964

العدد الحادي والسّتون

2016

تونس

تـفضيـة الزمـان
بين الكونيّة العرفانيّة والخصوصيّة الثقافيّة

عبد العزيز المسعودي
كلية الآداب - جامعة سوسة

ملخّص

يتناول المقال، في مرحلة أولى، موضوع التناسب الاستعاري بين الفضاء والزمان ويستعرض نماذج لغوية تتجاوز حدود اللغة العربية بعضها يُمَوْضع الأحداث على خط الزمان باستعمال حروف وظروف مستعملة في الأصل للتعبير عن المكان وبعضها الآخر يمثل الأحداث تمثيلا حركيا طبقا لمنوالي الأنا المتحرك والزمان المتحرك عند كلارك ؛ ثم يطرح المقال، في مرحلة ثانية، جملة من التساؤلات عن مدى كونيّة هذا التناسب في ضوء أمثلة متنوّعة معبّرة عن الخصوصيّات الثقافيّة لدى بعض الشعوب.

الكلمات المفاتيح: الفضاء، الزمان، التفضية، الكونيّة، التناسب الاستعاري، التمثيل الاستعاري، العرفان الزماني.

Abstract

This paper deals with space-time metaphoric mapping. As a first step, I will expose cross linguistic data about time location in terms of spatial location and of motion with reference to Clark moving time model and moving ego model. Further, I will expose culturally specific examples as evidences against the universality of space-time metaphoric mapping.

Key words : Space, time, spacialization, universality, metaphorization, time metaphoric mapping, temporal cognition.

تبدو علاقة العرفان الفضائي[1] بالتفكير وباللغة من أبرز المباحث التي شغلت اللسانيين وعلماء النفس؛ كما تبدو أهمية التفكير الفضائي واضحة من خلال ما يمدّنا به من أدوات مساعدة على فهم أشياء مجردة ومجالات مختلفة لا ندركها مباشرة عبر الحواس مثل المساواة والرياضيات والتنقل عبر الزمان؛ بل مثل مفهوم الزمان نفسه حيث تتجلى علاقته بالفضاء من خلال الاستعارات الفضائية المنتشرة في التخاطب اليومي في مختلف الألسن (Levinson Casasanto & Boroditsky, 2008: 580, 2003 :xvii).

ويقودنا بروز الظاهرة الاستعارية عبر الألسن إلى التساؤل عن طبيعة العلاقة بين الفضاء والزمان وبالخصوص إلى السؤال التالي: لماذا نستعير الفضاء للتعبير عن الزمان في حين يندر العكس؟[2] والملاحظ هنا أنّ العناصر الأولى للجواب المتداول عند جلّ الدارسين مستمدّة من طبيعة الزمان باعتباره كيانا غامضا نشعر بمروره ولا نلاحظ حركته إلا من خلال التغييرات المتعاقبة الناتجة عن ذلك المرور. الزمان، إذن، مفهوم مجرّد لا يمكن إدراكه في ذاته مباشرة كما ندرك الفضاء؛ لذلك اعتبر جلّ الباحثين في العلوم اللسانية والعرفانية أنّ إدراك الزمان من خلال الاستعارات الفضائية يرقى إلى مستوى الكليات سيما بعد أن استقرّ لديهم التناسب الاستعاري بين الفضاء والزمان space-time metaphoric mapping ظاهرة كونيّة (Sinha & Bernardez, 2015 :309)). غير أنّ بعضا آخر من الدارسين قد شكّك في كونية الظاهرة وقدّم أدلّة لغوية وثقافية تدعو إلى اعتبارها من شبه الكليات[3] فحسب.

لقد تجلّت الأدلّة الداعية إلى تنسيب كونيّة هذه الظاهرة في أمثلة لغويّة متنوّعة تنتمي إلى المستويين المعجميّ والنحويّ في بعض الألسن؛ كما تجلّت

(1) العرفان الفضائي فرع من علم النفس العرفاني يهتم بدراسة المعارف والاعتقادات المتصلة بخصائص الأشياء والأحداث (Montello, 2001) كما يدرس كيفية اكتساب الإنسان للمعارف المتصلة بمحيطه الواقعي أو الافتراضي وكيفية تنظيمها واستعمالها وهو ما يظهر في قدرته على تحديد موقع وجوده ومعرفة الطريق إلى مكان إقامته وتحصيل الموارد الضرورية لعيشه (waller& Nadel, 2013).

(2) توجد أمثلة نادرة على استعمال عبارات زمانية للتعبير عن الفضاء منها في البيدجين كلمة fastaem المشتقة من العبارة الانقليزية first time والمستعملة للتعبير عن الزمان ثم عن المكان (Haspelmath, 1997 : 141-142).

(3) الأموناوا من لغات الأمازون تعتبر مثالا يدحض فرضية التناسب الكوني بين الفضاء والزمان (Sinha &alii, 2012).

أيضا في تجارب غير لغويّة منها ترتيب المشاهد والرسوم الممثلة لأنواع مختلفة من الأحداث الطبيعيّة. ومن خلال كلّ ذلك تظهر الخصوصيات الثقافية لدى بعض الشعوب متجاوزة المستوى اللغوي والرمزي مثل اتجاه الكتابة والقراءة إلى المستوى المادي الذي تجسّمه المصنوعات المُفَضِّيَة للزمان مثل الساعات اليدوية والحائطية وروزنامات التقويم السنوي.

ضمن هذا الإطار العام رأينا أن نبدأ باستعراض عيّنات لغوية تجسم التناسب الفضائيّ الزمانيّ وتنتمي إلى المستويين المعجمي والنحويّ في عدد من الألسن (§2) ثم نتناول البعض من قضايا التمثيل العرفاني للزمان انطلاقا من تجربة الإنسان في الكون وانعكاس ذلك على تفضية الزمان spacialization في المستويين الرمزي والمادي (§3). ثم نختم بقضية التناسب الاستعاري الفضائي الزماني بين الكونيّة العرفانية والخصوصيّات الثقافية عند بعض الشعوب (§4).

الاستعارات الفضائية والتمثيل اللساني للزمان

يتجلّى الزمان، في التصور السائد، في شكل متتالية من النقاط تستقرّ على خط وهميّ أحاديّ البعد والاتجاه يُعرف عادة بـ خط الزمان timeline. وهو محور تتعاقب عليه الآنات دون أن تتواقت. وفي المقابل يكون الفضاء متعدّد الاتجاهات ثلاثيّ الأبعاد يتكوّن من المحور الأفقي والمحور العمودي والمحور الجانبي. وتعطينا الإحداثيات الفضائية المشتقة من المسطحات planes، في علاقة بأجسادنا، الجهات الست أي اليمين واليسار والأمام والخلف والأعلى والأسفل باعتبارها مسطحات أساسية (Levinson, 2004: 11 ؛ 22-21: Haspelmath, 1997).

لقد لاحظ هاسبلمات أنّ المحور الجانبيّ الخاصّ بالعلاقات الفضائيّة مهمَل في تعبيرنا عن العلاقات الزمانيّة لأنّه لا معنى لقولنا مثلا «على يمين يوم كذا أو على يسار الساعة كذا». أمّا استعمال المحور العمودي فهو نادر في التعبير عن الزمان ولا نجد أمثلة عنه إلا في لغات قليلة منها الصينية حيث تكون كلمة shàng (فوق) وxià (تحت) مستعملتين على التوالي بمعنى (الماضي) و(الآتي)؛ فالسنة الماضية عند الصينيين هي shàngnián والسنة القادمة هي xiàgnián. وفي المقابل يكون المحور الأفقي مناسبا في جل اللغات البشرية للتعبير عن الزمان[1].

(1) انظر في العنصر (3) علاقة التمثيل الزماني باتجاه الكتابة باعتبارها ضربا من التشكل الفضائي.

وحوافز مناسبته متعدّدة بعضها كامن في خصائص الزمان مثل التعاقب والامتداد أو «الاستغراق» كما يقول النحاة وبعضها الآخر كامن في العرفان البشري تتجلى صوَره في استعارات تصورية شائعة في جلّ الثقافات مثل استعارة مرور الوقت واستعارة الزمان نهر واستعارة «الخط الزماني»[1] المعروفة في الأدبيات الفلسفية واللسانية.

وإذا بحثنا عن دور الفضاء في تمثيل الزمان تمثيلا لغويّا وجدناه حاضرا في مختلف المقولات الدلاليّة والواسمات اللفظيّة النحويّة والمعجميّة. لذلك تباين اللسانيّون في تصنيف الواسمات الفضائيّة للزمان فقسّمتها تروقوت (Traugott, 1978) حسب مقولات زمانيّة ثلاث هي التوقيت والمظهر وتقطيع الأحداث sequencing فاهتمّت بالوحدات النحوية عامّة بينما اهتمّ هاسبلمات (1997) بمقولة الظروف الزمانيّة.

ولن يكون مدخلنا في تحليل العيّنات اللسانيّة مدخلا لفظيّا بالأساس لأنّ تنوّع الألفاظ يشتّت ملاحظاتنا ويقتضي منّا تفصيلا لا يسمح به المجال ؛ لذلك اخترنا مدخلا مفهوميّا يندرج في إطار بعض المقاربات الاستعاريّة العرفانيّة السائدة حاليّا وينطلق من ثنائيّة وثيقة الصلة بالفضاء هي ثنائيّة الحلول والحركة.

1. الوسم اللفظي للحلول في الزمان

المقصود بالحلول أو المَوقَعَة location استقرار الحدث في نقطة معينة أو قطعة من خط الزمان وهو في الأصل حسب الكثيرين مفهوم علاقي فضائي به يتحدّد موقع كيان متحرّك - أقل بروزا هو السيار trajector حسب اصطلاح لانقاكير (Langacker, 1987 :217) وهو يشتغل بمثابة الصورة Figure (Talmy, 2000) - من كيان آخر يكون في العادة ثابتا وأكثر بروزا هو المعلم Landmark وهو يشتغل بمثابة المُرتكَز Ground. ويقع التعبير عن علاقة الحلول في المكان أو في الزمان بواسمات فضائيّة ثنائية الأبعاد في مقدمتها حروف الجر التي تفيد بالخصوص علاقتيْ الاحتواء والاستعلاء مثل في وعلى (2-1) :

1 - أ- الكتاب على الطاولة.

ب- اللقاء على الساعة الخامسة.

(1) أشار البعض إلى غياب الخط الزماني في بعض اللغات (Traugott, 1978 :394) أو إلى وجود اختلافات في طريقة تمثله نتيجة خصوصيات ثقافية تتعلق باتجاه الكتابة.

2 – أ– الأستاذ في القاعة.

ب– تزهر الأشجار في الربيع.

إذا قارنا الأمثلة في (1) و(2) وجدنا تناظرا بين الاستعمال الفضائي (أ) والاستعمال الزماني (ب) ووجدنا اختلافا في مستوى الدلالة الفضائية. فحرف الجر على يقتضي معلما فضائيا من المسطحات في حين يقتضي في معلما حاويا مشتملا على السيار. وبالنسبة إلى الكثير من الدارسين سيما أصحاب النظريات الاستعارية يُعتبر المجالُ الفضائي الأصلَ في استعمال هذه الواسمات على وجه الحقيقة. أمّا استعمالها في مجال الزمان فهو من باب الاستعارات المتصورية conceptual metaphors. ويبدو استعمال الواسمات الفضائية اعتباطيا أحيانا فإذا أخذنا من اللغة الروسية v (في) و na (على) في الاستعمال الفضائي وجدنا مثلا :

3 – на заводе [Na zavÓdé] - на почте [na pÓtchté]

حرفيا:على مركز البريد حرفيا: على المصنع

4 – в институте]V institouté[- в квартире]v kvartíré[

في الشقة - في المعهد

ووجدنا الاعتباطية نفسها في بعض الاستعمالات من المجال الزماني حيث يتوارد الحرف na مع أسماء أزمنة طبيعية مثل الأسبوع (5) والحرف v مع وحدات أخرى تحيل على مدد زمانية أطول من الأسبوع أو أقل (6) :

5 – Я не работаю на этой неделе.

Ya né rabotayou na étai nédélé

أسبوع هذا على أعمل لا أنا

(أنا لا أعمل في هذا الأسبوع)

6 – Я уезжаю в пять часов /в ноябре/в следующем году.

Ya ouyézjayou v piat tchéssof/ v naiabre / v slédouyouchém gadou

العام القادم في / نوفمبر في / الساعة الخامسة في أغادر أنا

أغادر في الساعة الخامسة / في شهر نوفمر/ العامَ القادم

وفي السياق نفسه نلاحظ بالنسبة إلى العربية توارد في مع جلّ أسماء الأزمنة الطبيعية (2 – ب) أمّا حرف الجر على فيتلازم عادة مع كلمة الساعة (1 – ب)

وإن كنّا نجده مع الأسبوع il-ġimgħa [اِلْجِمْعَه] في المالطية (7) أو مع مدد طبيعية أخرى مثل الشهر والسنة لأنّ في على معنى محصولي :

7 – L-aktar jum pożittiv għal din il-ġimgħa hu s-Sibt.(Illum)

لكتر يوم بوزيتيف عل دين الجمعة هو السبت

أكثر يوم إيجابي بالنسبة إلى هذا الأسبوع هو يوم السبت (صحيفة اليوم المالطية، 2أوت 2015)

تعكس مثل هذه الأمثلة درجة من الاعتباطية في اختيار الواسمات اللفظية لكنّ حوافز التفضية تظلّ متردّدة بين تصور الزمان في شكل معلم وتصور الحدث في شكل سيّار يستقرّ فوق المعلم أو يحلّ فيه وذلك حسب طريقة إدراكنا للمعلم في شكل مسطح (7) أو في شكل حاوية (2 – ب).

والملاحظ أيضا في بعض الألسن هو تلازم بعض الحروف أو الأدوات مع نوع خاص من أسماء الزمان الطبيعي يفضي أحيانا إلى مزج الحرف مع الاسم ليكوّن ظرفا مفردا كما هو شأن عبارة «في العشية» التي تصبح في المالطية كلمة واحدة «فلعشية»[1] بمعنى «المساء» (8) :

8 – tmienja ta' filgħaxija

فلعشيه تاع تمانيه

الثامنة مساءً

وما يمكن الانتهاء إليه بشأن الواسمات الحرفية هو أنّه ليس من السهل التمييز مثلا بين مقولتيْ الحرف والاسم في إطار مقاربة عابرة للألسن تظهر في ضوئها نسبية المقـوَلة اللغوية الخاصة لأنّ ما يصنّف حرفا في نحو لسان معيّن مثل الروسية قد يصنف ظرفا في نحو لسان آخر مثل العربية. وهذا هو شأن حرف الجر pod الممكن ترجمته بـ تحت في الاستعمال الفضائي (9) وبـ عند في الاستعمال الزماني (10) :

9 – Чемадан стоит под столом

Tchémadan stayit pod stalom

الطاولة تحت تنتصب الحقيبة

(1) هذا نوع من التعجيم ومثله أيضا من المالطية «نصف النهار» التي تصبح nofsinhar.

الحقيبة منتصبة تحت الطاولة.

Надо кончить эту работу под вечер. – 10

Nada kontchit yétou rabotou pod vétcher

المساء تحت العمل هذا ينتهي يحتاج

يقتضي هذا العمل الفراغَ منه عند المساء.

ويجب ألا نستنتج طبعا من النماذج السابقة أنّ حروف الجر والظروف لا تعبّر إلا عن معنى الحلول وإنّما بعضها يعبّر عن مفهوم التنقل ويرتبط بأحد منوالي الحركة عند كلارك (clark, 1973) وهو ما نوضّحه لاحقا.

2- تمثيل الزمان عبر الحركة

يقترن الزمان في الفلسفة الكلاسيكية بحركة الأفلاك (ابن رشد، تفسير ما بعد الطبيعة). وهو اقتران قد تأثر به بعض النحاة تأثرا صريحا. فهذا ابن يعيش يلاحظ أنّ الأفعال -بمعنى الأحداث- مساوقة[1] للزمان تنقسم بأقسامه فيقول: «لمّا كان [الزمان] ثلاثة ماض وحاضر ومستقبل وذلك من قبل أنّ الأزمنة حركات الفلك فمنها حركة مضت ومنها حركة لم تأت بعد ومنها حركة تفصل بين الماضية والآتية كانت الأفعال كذلك ماض ومستقبل وحاضر فالماضي ما عدم بعد وجوده فيقع الإخبار عنه في زمان بعد زمان وجوده [...] والمستقبل ما لم يكن له وجود بعد بل يكون زمان الإخبار عنه قبل زمان وجوده وأما الحاضر فهو الذي يصل إليه المستقبل ويسري منه الماضي فيكون زمان الإخبار عنه هو زمان وجوده» (ش. المفصل، 4 : VII). وبصرف النظر عن قضيّة التقسيم الثنائي بين الماضي وغير الماضي عند النحاة الأوائل والتقسيم الثلاثي عند النحاة المتأخرين المتأثرين -حسب البعض- بالفلسفة اليونانية (Carter, 2008) فالثابت لدينا هو وعي النحاة بحركة الزمان عامّة و بطابعه الإشاريّ النحويّ خاصة. وهو أمر جليّ في تمييزهم بين زمن الحدوث أو ما يسميه ابن يعيش زمان الإخبار وبالخصوص جعله زمان الإخبار نقطة إشارية تتفاصل من خلالها الأزمنة الثلاثة حسب علاقات الأسبقية واللاحقية والتواقت.

(1) المساوقة في لسان العرب هي المتابعة (س و ق) وهي تمثل مفهوما حركيّا.

إنّ وعي الإنسان بحركة الزمان وعي قديم ناتج عن إدراكه التغييرات المستمرة الناتجة عن تعاقب الأحداث ودوريّتها ؛ وخلاصة تلك التغييرات أنّ كلّ شيء يمضي ولا شيء يبقى على حاله. وهذه الحقيقة الكونية لخّصها هيرقليطس Heraclitus منذ القديم في قولته الشهيرة «لا أحد ينزل النهر مرتين» لأنّ النهر والنازل فيه كلاهما متغيّر ولأنّ الزمان لا يتوقف أبدا عن الحركة (Kahn, 1979 : 168). ويبدو أنّ الوعي الغربيّ بالزمان منذ هيرقليطس ظلّ يدور في فلك استعارة النهر[1] وما لازمها من مفاهيم حركيّة مثل المرور passage والتدفق flow والمجرى course. ولئن كانت الحركة والتجدّد تعتبران من أبرز مظاهر تفضية الزمان فإنّ استعارة النهر وما ترشّح منها لا ينتميان إلى الدائرة الكونيّة وإنّما يظلان -على ما يبدو- خاصّين بالمجتمعات النهرية[2] دون الصحراوية.

وإذا تركنا المقاربة الفلسفيّة جانبا وانتقلنا إلى المقاربة العرفانيّة وحاولنا الاقتصار على المظهر اللغوي الاختباري وجدنا أنفسنا مع كلارك Clark ندور في الفلك الاستعاريّ نفسه. فلوصف الاستعارات الفضائية وتقديم تفسير واضح للمفاهيم الزمانية يستعير كلارك (1973 : 52-50) للزمان صورة طريق سيّارة تحتوي بداخلها سلسلة من الأحداث المتعاقبة نكون نحن البشر بداخلها ويمكن أن ننظر إليها بطريقتين مختلفتين: في الأولى نتنقّل نحن عبر الطريق فتكون الأحداث ثابتة ويكون المستقبل أمامنا والماضي خلفنا. وبذلك يكون الأنا نقطة مرجعية وكيانا متنقلا عبر الزمان» يسري» من الماضي باتجاه المستقبل. ويطلق كلارك على هذا المنوال مصطلح الأنا المتحرك moving ego (Klark, idem ;Tenbrik, 2007 : 15). وهو تقريبا ما يطلق عليه لايكوف وجونسون (1999) مصطلح استعارة الملاحظ المتحرك moving observer metaphor ؛ وفي الطريقة الثانية تتنقّل الأحداث باتجاه الأنا الثابت في مكانه آتية من الأمام متجهة إلى الخلف. ويطلق كلارك على هذه الاستعارة مصطلح الزمان المتحرك moving time

(1) لقد أثارت استعارة النهر جدلا كبيرا في أوساط الفلاسفة الغربيّين. ومن مواطن الجدل عندهم علاقة الأحداث بمجرى النهر. هل تشبه الأحداث بأشياء عائمة تسبح فوق الماء أو بهباءات الماء التي يتكون منها النهر نفسه؟ وهل ننظر إلى النهر نظرة ذرّية علمية أو باعتباره صورة ذهنية وسمة إدراكية تجسّم تجدد الزمان. وإذا كان الزمان نهرا يمرّ فبم يمر وبمن ؟ وهل هو متحرّك بالنسبة إلى نفسه أو بالنسبة إلى غيرة؟ وهكذا... (Mclure, 2015 : 122-125):

(2) انظر مثلا العبارات التالية من بعض اللغات الأوروبية: fleuve du temps, fiume del tempo, Río de tiempo river of time ولاحظ في المقابل أنّنا لا نجد في العربية عبارة من قبيل «نهر الزمان».

العابر من المستقبل متجاوزا الأنا باتجاه الماضي وهو ما يسميه لايكوف وجونسون استعارة الزمان المتحرك The moving time metaphor. ويقترح إفانز (Evans, 2005 : 215) الخطاطة التالية لتمثيل هذه الاستعارة :

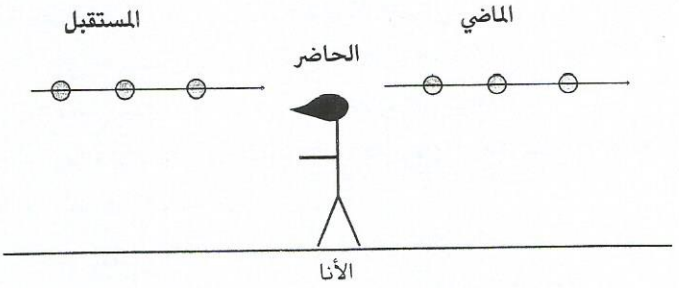

خطاطة 1 : منوال الزمان المتحرك : خاص بالعربية

يجسّم الرسم البنية الفضائية لحلول الأوقات الثلاثة على خط الزمان الذي يتوسطه الأنا الثابت في مستوى الحاضر باعتباره نقطة مراقبة زمانية أو مركزا إشاريّا يقع المستقبل أمامه والماضي خلفه. وهذا ما يجسّمه اتجاه السهم في رمز الأنا مثلما يجسّم السهم المعاكس اتجاه الزمان المنطلق من المستقبل إلى الماضي. وترمز الدوائر الرمادية للأحداث المساوقة لحركة الزمان المتنقلة باتجاه الأنا. ويفسّر هذا المنوال في مجال الألسن الطبيعية ملفوظات من نوع (11) :

(11) أ- جاء يوم الخميس ومضى يوم الأربعاء

ب- الأسبوع تعدّى فيسع (تونسية) = مضى الأسبوع بسرعة.

ج- sena li ghaddiet (مالطيّة)

السنة لي عدّت (السنة التي مضت)

د- ? come è andata questa settimana di scuola (إيطالية)

كيف مضى (حرفيا: ذهب) الأسبوع الدراسي ؟

هـ- الوقت يطير في لمح البصر

و- داهمنا الوقت

تبدو مقولة الفعل في (11) المقولةَ الأساسيّة المعبّرة عن حركة الزمان وتنقّله من المستقبل باتجاه الماضي مرورا بالحاضر حيث يكون المتكلم ثابتا مضطلعا بدور المُعَاني experiencer (أ - د). لكن بعض أفعال الحركة قد تكون محمّلة بصور

أخرى إضافية تستعير للوقت صورة الطائر (هـ) أو صورة الخصم المباغِت في حين يضطلع الأنا بدور المعاني (و)...

ويكون التعبير صريحا عن حركة الزمان بواسطة الصفات كما في (12) :

(12) أ- السنة القادمة / السنة الماضية (فصحى).
ب- السنة الجيّة / السنة اللي فاتت (مصرية)
العام الجّاي/ العام اللي تعدّى/ فات (تونسية).
د- Is-surmast qal li l- ġimgħa d- deħla se tkun vakanza, (Borg, 2013 : 1)
السيرماست قال لي الجمعة الداخلة ستكون فاكانتسا
قال المدير إنّ الأسبوع القادم سيكون عطلة.

والملاحظ في (12) أنّ بعض اللهجات العربية تعبّر عن حركة الأوقات الطبيعية مثل السنة و الشهر والأسبوع بجذور تفيد معنى القدوم والمجيء (أ-ج) بينما تعبّر المالطية (د) وكذلك بعض الاستعمالات في اللهجة التونسية عن الحركة نفسها والاتجاه نفسه بجذر يفيد معنى الدخول وفيه استعارة ثريّة تعبّر عن الحركة وتجعل نقطة المراقبة الزمانية فضاء مغلقا يمثل حيّز وجود الأنا إليه يصل الزمان آتيا من المستقبل ومنه يعبر خارجا باتجاه الماضي.

وتجدر الإشارة أيضا إلى أنّ كلارك (1973) يجد الظروف من أهمّ الوحدات اللغوية «المشتقة من الاستعارات الفضائية» والمعبّرة عن مفهوميْ الأسبقية واللاحقية في الزمان وهو ما يمكن تمثيله في (13) :

(13) أ- غادر زيد قبل منتصف النهار وغادرت ليلى بعد منتصف الليل
ب- غادر زيد قبل أن تصل ليلى
د- L'après midi / l'avant midi, il allait à la piscine[1]
هـ- He used to go to the pool forenoon / in the afternoon.
كان يذهب إلى المسبح قبل منتصف النهار / بعد منتصف النهار.

إنّ مفهوم القبلية والبعدية في العربية وغيرها من الألسن حاضر في التعبير الفضائي عن مواضع الجثث أو في التعبير الزماني عن مواضع الأحداث (13 أ)

(1) عبارة Avant midi خاصة بالاستعمال في كندا وبلجيكا والمتداول في الاستعمال عند الفرنسيين هو la matinée.

ولاسيما تحديد علاقتها بعضها ببعض من حيث الأسبقية ؛ فالمقصود في (13 ب) على سبيل الذكر هو «غادر زيد قبل وقت وصول ليلى».

يمكّننا منوال الزمان المتحرّك من وصف الاستعمالات المتنوّعة لجانب مهمّ من الأفعال والصفات والظروف كما يكشف لنا عن الخصائص الذهنية المشتركة بين جملة من الاستعمالات المختلفة في ألسن متعدّدة. لكنّ الصورة لا تكتمل دون استعراض جانب ثان من المعطيات متعلّق بمنوال الأنا المتحرك (الخطاطة عدد 2) أي بالاتجاه المعاكس من الطريق السيارة عند كلارك.

في منوال الأنا المتحرك (Evans, 2005 : 219) يمثّل موضع الأنا الحاضر ويكون الماضي خلفه والمستقبل أمامه ؛ وهو ما تفصح عنه المفاهيم المعجميّة المذكورة في أعلى الخطاطة (2). ويبدو الأنا متنقّلا عبر أرضيّة زمانيّة يمثلها الخط المشبع في الأسفل أمّا السهم فيشير إلى حركة الأنا الذي يتجاوز الدوائر الرماديّة الرامزة للأحداث.

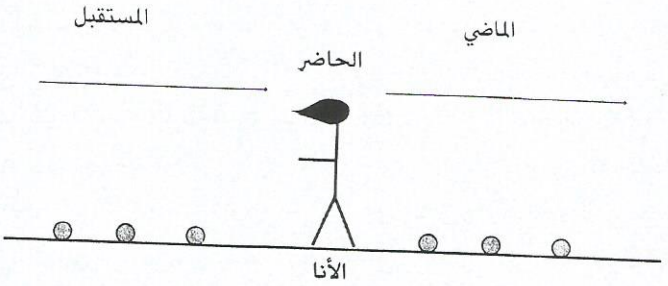

خطاطة 2 : منوال الأنا المتحرك : خاص بالعربية

يوفّر لنا هذا المنوال العرفاني حوافز أبنية لغوية متنوّعة مثل المذكورة في (14) :

(14) أ- اقتربنا من العطلة

ب- تجاوزنا الموعد

ج- Sentejn u nofs wara[1] (مالطية)

سنتيْن و نفص ورا (هسّه) ≈ سنتان ونصف قبل (الآن)

(1) لاحظ هاسبلمات أنّ كلمة بعد اختفت من المالطية وعوضتها كلمة ورا التي تستعمل في سياقات مختلفة (Haspelmath, 1997).

تعبّر بعض الأمثلة صراحة عن تنقّل الأنا باتجاه المستقبل حيث تكون **الأحداث ثابتة تنتظر وصوله كما في (14 أ - ب) أو يعبّر عن ذلك بصفة غير مباشرة كما في (14 ج) حيث تكون النقطة الزمانيّة المرجعيّة هي لحظة التلفظ.** ولمّا كانت الآن نقطة إشاريّة متنقّلة أبدا مستلزمة وجود الأنا كان المعنى (سنتان ونصف قبل الآن)[1] حصيلة لاشتغال منوال الأنا المتحرك.

وإذا تأمّلنا منوالي كلارك وجدناهما متضادّين لكنّهما غير متدافعين. ويظهر تضادّهما في مستوى المعادلات التالية :

منوال الأنا المتحرّك	ألأمام= المستقبل	الوراء= الماضي
منوال الزمان المتحرك	الأمام= الماضي	الوراء = المستقبل

ويتحقّق التضاد من خلال السياقين في (15) :

(15) أ- ما زالت الفرص أمامنا.

ب- الأيام التي تسبق العيد تعرف حركة استثنائية.

يتخذ المتكلم في (15 أ) الأنا نقطة مرجعية وهو ما يقتضي تطبيق معادلات الأنا المتحرك في حين يتخذ في (15 ب) العيد نقطة مرجعية مع ما يقتضيه ذلك من معادلات تنتمي إلى منوال الزمان المتحرك. أمّا عدم التدافع فهو نتيجة تناول عرفانيّ لحركة الزمان من منظورين مختلفتين perspectives الأول ينتمي إلى منوال الأنا المتحرّك وهو ينطلق في تمثيله الزمني من الماضي باتجاه المستقبل والثاني خاص بمنوال الزمان المتحرك وهو يعكس الاتجاه من المستقبل إلى الماضي (Klark, 1973 :51-52).

هذه العلاقة الخاصة بين منواليْ الحركة التي تجمع بين التضاد وعدم التدافع تمثل الحافز المباشر لاستعارة الطريق السيارة عند كلارك. فاتجاه حركة الأنا يكون عكس اتجاه حركة الزمان لكن ذلك لا يكون مصدر تدافع بين طريقتي التناول بدليل أنّ الاثنين معا لا يشكلان تناقضا في تمثيل الزمان ويمكن أن يجتمعا في جملة مثل (16) :

(16) نحن نسابق الزمان

(1) المعنى هو سنتين ونصف قبل الآن وكلمة ورا في المالطية يمكن أن تنتمي إلى منوال الزمان المتحرك في عبارة wara nofsinhar حيث يكون الزمان متجها نحو المتكلم والمستقبل وراءه.

حيث لا يوجد طرف ثابت وحيث نستنتج أنّ الأنا يسرع من ناحيته ويتجه نحو الهدف وكذلك يفعل الزمان بحركته الطبيعية. ويتوقف الفوز في السباق على مدى تحكّم الأنا في مسار الأحداث.

لقد حللنا نماذج لغوية تعكس بوضوح وجود نوع من التناسب بين الفضاء والزمان فيبدو حلول الأحداث في الزمان بمثابة حلول الأجسام في الفضاء. ويبدو تطور الأحداث بمثابة تنقل الأجسام. وتبدو سمة الحركة متنوعة قابلة للمنوَلة في منوالي الأنا المتحرك والزمان المتحرك. كما يبدو لبروز الحركة في تمثيل الزمان حوافز فلكيّة طبيعية مثل حركة الكواكب وحركة الظل وهذه الحوافز الطبيعية تجسمت صناعيا في التجسيد الأيقوني لحركة الزمان من خلال دبيب عقارب الساعة الميكانيكية مثلا.

وفي هذا السياق الصناعي تعكس الألسن تصورات ثقافيّة متنوّعة للزمان من خلال اختلاف الحوافز المصطلحية. فتكون للساعة يد في الانقليزية[1] وتكون لها إبرة في الفرنسية وعقارب في العربية. وتداعي الأفكار والمفاهيم في اللغة العربية قد ينقلنا من عقرب الساعة إلى العقرب الصحراء ولدغها والزمان وغدره والوقت قاتلا ومقتولا وما إليه من معان استعارية قد تبدو للبعض معبّرة عن مشكلة وجوديّة قديمة بين العربي والزمان.

3- تفضية الزمان والخصوصيّات الثقافيّة

يمكن اعتبار تفضية الزمان حصيلة تعامل بين العرفان والمنتجات الثقافية بما في ذلك المصنوعاتartifacts التي نقتصر منها على نوعين: الكتابة باعتبارها ضربا من التكنولوجيا (Coulmas, 2003 : 10) والمصنوعات المخصّصة لقيس الزمان مثل الساعات الحائطية وروزنامات التقويم السنوي .

3-1. الكتابة والتفضية

يمكن أن نلخّص الخصائص العرفانية والثقافية لتفضية الزمان في العربية مستلهمين طارق بن زياد في قولنا «المستقبل أمامكم والماضي وراءكم». ويمكن أن نترجم هذا التصور العرفاني برسم خط الزمان بدءا من اليمين وصولا إلى اليسار فيكون الماضي على يمين النقطة المرجعية الآن موقع وجود الأنا ويكون المستقبل

(1) The clock hand.

على يسارها ؛ وكذا شأن كلّ الألسن التي يكون نظام الكتابة فيها[1] من اليمين إلى اليسار مثل العبريّة والفارسيّة والأورديّة.

في المقابل يبدو الأمر مختلفا مع اللغات الأوروبية. فلئن كان المستقبل أمام المتكلم والماضي وراءه في مستوى الذهن فهو في مستوى الرسم مخالف لما رسمناه مع العربية ومثيلاتها لأنّ الماضي حسب اتجاه الكتابة يكون على يسار النقطة المرجعيّة والمستقبل على يمينها.

لقد أجرى علماء النفس اختبارات -تتمثل في الترتيب الفضائي لمجموعة من الصور والأحداث[2]- على مجموعتين من المستجوبين تختلفان من حيث اللغة الأم: الأولى يتكلّم أفرادها الأنقليزية والثانية يتكلم أفرادها العبرية والعربية (Fuhrman&Boroditsky, 210). وكانت حصيلة الاختبارات أنّ متكلّمي الانقليزية رتبوا الصور والأحداث على خط أفقي يتجه من اليسار إلى اليمين في حين أنّ متكلمي العربيّة والعبريّة رتبوها من اليمين إلى اليسار. وقد تكرّرت الإجابات نفسها إثر ترتيب مشاهد وأرقام تصاعديّة. وهذا يعني بما لا يدع مجالا للشك أنّ التقاليد الثقافية المتعلقة باتجاه الكتابة والقراءة تؤثر مباشرة في العرفان الفضائي وفي وظائف مختلفة مثل الذاكرة والانتباه البصريّ والتوقّعات المتصلة بالاتجاهات والمسارات.

ويختلف الأمر أيضا في الصينية بما أنّ اتجاه التمثيل الفضائي للزمان يكون من الأعلى إلى الأسفل حسب الكتابة التقليدية عند الصينيين وهو أمر يعكسه التعبير اللغوي عن الماضي والمستقبل كما رأينا أعلاه (§2).

أما عند الأيمارا Aymara[3] فقد لوحظ أنّ متكلمي هذه اللغة يتحدثون عن المستقبل وكأنّه وراءهم وعن الماضي وكأنّه أمامهم وهذا لا يظهر -حسب الدارسين- في أدلة لغوية فحسب وإنّما يتجلّى كذلك في مستوى الحركات والإشارات (Fuhrman,O . & Boroditsky,L. 2010 1431) :

(1) تتنوّع أنظمة الكتابة أفقيا وعموديا فتوجد خطوط أفقية من اليمين إلى اليسار أو العكس وتوجد خطوط عمودية من أعلى إلى أسفل والعكس وتوجد أيضا أنظمة كتابة لا تخضع لاتجاه معين مثل الهيروغلوفية.

(2) نذكر على سبيل المثال اختبارا يتمثل في ترتيب وجبات اليوم على خط زمني أو ترتيب صور لنجوم معروفين وهم في سن الطفولة ثم الشباب ثم الكهولة ثم الشيخوخة...

(3) الأيمارا من اللغات الأمريندية يتكلّمها شعب يحمل الاسم نفسه ويعيش في جبال الأنديز. وهي من اللغات الرسمية في بوليفيا إلى جانب الكيشوا والإسبانية.

وإلى كلّ ذلك لوحظ أيضا أنّ نظام الأعداد في الأموندوا amondawa[1] فقير جدا يتكوّن من أربع مفردات هي الواحد والاثنان ومنهما اشتقوا الثلاثة والأربعة. فلا وجود عندهم لأعداد تعبّر عن مفاهيم زمانية مثل الأعمار أو عن ترتيب زماني من قبيل ما هو موجود في الروزنامات عند سائر الشعوب. ولا وجود عندهم لمصطلحات تعبّر عن فسحات زمانية أو تحيل على تصوّر مجرد للزمان (Sinha& Alii, 2012:22).

إنّ مثل هذه الأدلّة الاستثنائية المستمدّة من ثقافات شعوب مثل الأيمارا والأموندوا تجعل التمثيل الفضائي للزمان في شكل حركة ممتدة من المستقبل باتجاه الماضي من شبه الكليات و ليس من الكليات كما هو شائع في الاعتقاد السائد.

2-3. مصنوعات قيس الزمان شكلا من أشكال التفضية

إنّ تفضية الزمان بواسطة المصنوعات المتداولة في حضارتنا اليوم يقود إلى طرح أسئلة منها مثلا: لماذا اقترنت الساعة الحائطية بواجهة الكنيسة ولم تقترن بالمسجد رغم أنّ للصلاة عند المسلمين خمسة مواعيد في اليوم وليس لها عند المسيحيّين مواعيد ثابتة؟ أهذا ناتج عن علاقة كلّ حضارة بالزمان وراجع إلى أسباب فلكية متصلة بتقويم الأشهر الشمسية وتقويم الأشهر القمرية على اعتبار أنّ الأولى أكثر قابليّة للتثبيت في فضاء الروزنامة[2] أم هو راجع إلى مواعيد الصلاة عند المسلمين المرتبطة بظهور ضوء الشمس twighlight المتغيّر حسب طول النهار وقصره وهو ما يفضي إلى تغير مواعيد مثل الفجر والعصر والمغرب ؟ الأرجح عندنا أنّ ارتباط التوقيت الصناعي بمعلم زماني ثابت مثل منتصف النهار قد سهّل تمثيل الزمان بواسطة الساعة الميكانيكية ومكن الإنسانية من تثبيت الزمان في فضاءات متساوية بصرف النظر عن بداية ضوء النهار ونهايته[3]. ولئن لم يكن ذلك

(1) لغة قبيلة أمازونية تقيم في ولاية روندونيا البرازيلية.

(2) بداية السنة الميلاديّة في 1 جانفي وبداية السنة الهجريّة متحولة عبر فصول السنة.

(3) تعاقب الليل والنهار نتيجة دوران الأرض حول الشمس وتعاقب أحداث اليوم مثل الشروق والغروب واجتياز الشمس لخط الاعتدال solar meridian crossing أحداث فلكية ذات دور مهمّ في تحديد الزمان وبتعدّدها تعددت اختيارات الشعوب القديمة في تحديد النقطة التي يبدأ منها اليوم فاختار المصريون القدامى الفجر أي بداية نور الشمس في الظهور غير المباشر وفضّل البابليون الغروب بينما فضل الفلكيون الهلينيّون اجتياز الشمس خط الاعتدال... كما اختلفت الشعوب في طريقة تقسيمها اليوم إلى 24 جزءا (ساعة) عند الفراعنة أو 12 جزءا فرعيا عند الصينيين أو 60 جزءا عند الهندوس (O'Neil, 1975 :4).

سببا كافيا فلعلّ السبب الحاسم هو التطور الصناعي الذي حوّل الزمان سلعة تقاس وتباع حسب النظرية التشييئية reification theory عند جورج لوكاش.

من الأسئلة أيضا: هل إنّ الفضاء الزماني المجسّد في وجه الساعة هو حصيلة عرفان زماني أي تمثيل زماني فضائي موجود في بعض الثقافات أم إنّ الساعة والروزنامة قد ساهمتا من ناحيتهما في إرساء ملامح جديدة للعرفان الزماني؟ المرجّح لدينا أنّ ملامح العرفان الزماني السائد الذي يميل أغلب الدارسين إلى اعتباره من الكليات النفسية هو في حقيقته نتيجة تعامل بين العرفان البشري وحركة الأفلاك في مرحلة أولى أنتج المصنوعات الزمانية – مثل الساعة الحائطية واليدوية والروزنامة– التي تعاملت في مرحلة ثانية مع العرفان وساهمت في تكييفه وتثبيت مقوماته كما يمكن أن نعرفها حاليا وكما تعكسه بعض الألسن الطبيعية[1] حديثا.

3-3. التصافح الاستعاري الفضائي الزماني بين الكونية والخصوصية

توجد نقاط تشابه ونقاط اختلاف بين الأحداث والأشياء. الأشياء تحلّ في الفضاء ولها خصائص مثل الكتلة والطاقة والأحداث تحلّ في الزمان ولها خصائص تميّزها عن الأشياء مثل المدّة duration والتعاقب succession. ومن الكليات قدرة الكائنات البشرية العاديّة على اختبار تجربة المدة والتعاقب؛ وهذا ما يؤكّده وجود وسائل لغوية للإحالة النسبية على الأحداث في علاقتها بأحداث أخرى أو بنقطة زمانية مرجعية مثل زمن التلفظ. لكن للألسنة خصوصيات في مستويي المفردات والمتصوّرات التي تحيل على المُدَد والمعالم الزمانية وتستند إلى أسس ثقافية وتقاليد حضارية مخصوصة (Sinha, 2014 : 185–186).

ولقد أشرنا سابقا إلى تنوّع الاستعارات التصورية وإلى أنّ استعارة النهر ليست الاستعارة الوحيدة في تمثيل الزمان وكذلك شأن استعارة الزمان فضاء واستعارة الطريق السيارة عند كلارك المتكوّنة من استعارتي الزمان المتحرّك والأنا المتحرّك. فالزمان في الثقافة الصينية يقع تمثله على محور عموديّ وليس على محور أفقيّ بل يمكن تمثل الزمان – كما لاحظ لايكوف وجونسون– باعتباره شيئا ملموسا كقولك «فلان يمر بأيام قاسية أو بتجربة عسيرة» بل يمكن تشخيص الزمان وعقلنته في عبارات من نوع: ستخبرك الأيام وتعلمك...

(1) نعتقد أنّ عبارات مثل « دقت الساعة» و«تشير الساعة إلى...» هي حصيلة تفاعل العرفان واللغة من ناحية مع مصنوعات قيس الزمان من ناحية ثانية.

أمّا عند جاكندوف (1983) فيعود التشابه بين تصور الفضاء والزمان إلى بنية محورية ترتب المجالات المختلفة على نحو واحد. ويرى هابل وإشنباخ (1997) Habel & Eschenbach أنّ الزمان مجال مستقلّ عن الفضاء لذلك نجد عبارات خاصة بمجال دون آخر ؛ فمن وجوه الاختلاف تضمّن العرفان الزماني مكوّن الاتجاه بخلاف العرفان الفضائي حيث يكون الخط الفضائي محايدا في اتجاهه. ومن مثل هذه الملاحظات يبيّن الباحثان أنّ الزمان باعتباره ميدانا مجردا ليس مشتقّا من الفضاء باعتباره ميدانا محسوسا وإنّما كلاهما يشارك الآخر جملة من البنى التمثيليّة وهذا يعني أن العلاقة الاستعارية بين المجالين لها قيمة تفسيريّة وهو ما يمكن دعمه بأدلّة من الواقع اللغوي لكن إلى حدّ معين ; Tenbrink, 19 Radden, 1997 (: 2007).

4- ملاحظات ختامية

لقد أثبتت المعطيات اللغوية المستمدّة من ألسن مختلفة والاختبارات النفسية التي أجراها العرفانيون على مستجوَبين منتمين إلى ثقافات متباينة جملة من الحقائق عن علاقة العرفان الفضائي بالعرفان الزماني وذلك في:

- مستوى التمثيل المعجمي للحركة اعتمادا على منوالي الأنا المتحرك و الزمان المتحرك.
- مستوى التمثيلات اللغوية وغير اللغوية حيث يتجلى تأثير العرفان الفضائي في العرفان الزماني لاعتبارات ثقافية مثل اتجاهات الكتابة والقراءة.

كما أكّدت البحوث، انطلاقا من بعض المعطيات اللسانيّة، جملة من الحقائق المتصلة بعلاقة الزمان بالفضاء وهي بالأساس علاقة إسقاط استعاريّ مصدره مجال الفضاء وهدفه مجال الزمان. وحصيلته إسقاط خصائص الفضاء على الزمان وهيكلة المجال الثاني في ضوء الأول. ولئن انطلق البحث من بعض الاستعارات الكبرى مثل «مرور الزمان حركة « فهو لم يغفل الخصوصيات الثقافية التي تبرُز في بعض أشكال التمثيل اللغوي أو غير اللغوي عند مجموعات بشرية تستخدم أطرا فضائية مختلفة في اللغة والعرفان. ومن الأجوبة المقترحة لتفسير ظاهرة التنوع ما ينتمي إلى المقاربة التطورية المتوازية التي يحدث فيها التطور بالتوازي بين الثقافة والأسس البيولوجية للعرفان فيكيّف كل منهما الآخر (Levinson, 2003: xx).

ويمكن للمتأمّل في مسارات التطور التكنولوجي أن يلاحظ الدور المهمّ لتفضية الزمان في تقدّم بعض الشعوب التي جسّمت مفهوم التفضية في مصنوعات مثل الساعة والروزنامة. والأرجح أنّ تلك المصنوعات قد ساهمت في تسريع نسق التطور لدى بعض المجتمعات مع ما صاحب ذلك من ظواهر مثل سَلعنة الوقت. كما يبدو أيضا أنّ التفضية والتشيئة قد كانا حصيلة جملة من العوامل الثقافية منها بالخصوص اختيار التقويم الشمسيّ على حساب التقويم القمري وتحديد معالم توقيت أكثر قابلية للتثبيت التكنولوجي.

المراجع العربية

- الأستراباذي، رضي الدين، شرح الكافية، منشورات جامعة قار يونس بنغازي، ط1، 1986
- جحفة، عبد المجيد، دلالة الزمن في العربية، دار توبقال للنشر، المغرب، 2006.
- ابن رشد، تفسير ما بعد الطبيعة، تح. موريس بويقيس، المكتبة الكاثوليكية بيروت، 1938.
- ابن يعيش، موفق الدين، شرح المفصل، عالم الكتب.
- لايكوف جورج وجونسون مارك، 1996: الاستعارات التي نحيا بها، ترجمة عبد المجيد جحفة، دار توبقال ،ط1، ،البيضاء ،المغرب.

المراجع الأجنبية

- Английский язык, 2011 : Грамматика в кармане, Питер, Москва.
- Borg, A. Azzopardi-Alexander, M. 1997 /2013 : Maltese, Routledge.
- Carter M. 2008 : Mādhi and Mudhāri' in Versteegh, K. 2008: Encyclopedia of Arabic Language and Linguistics, Vol. III, Brill.
- Clark, H. H. 1973 : Space, Time Semantics and the Child, in Moore, T.(ed.) Cognitive developpment and the acquisitionof language (pp 27-63). New York Academic Press.
- Coulmas, F. 2003: Writing systems : An Introduction to Their Linguistic Analysis, University Press Cambridge.
- Evans, V. 2013 : Language and Time: A Cognitive Linguistics Approach, Cambridge University Press.
- ----------, 2005 : The Structure of Time Language, meaning and temporal cognition, University of Sussex John Benjamins Publishing Company Amsterdam /Philadelphia.

- Fuhrman, O . & Boroditsky, L. 2010 : Cross- Cultural Differences in Mental Representations of Time : Evidence From an Implicit Nonlinguistic Task, Cognitive Science, A Multidisciplinary Journal, 34, 1430-1451, Cognitive Science Society, Inc.
- Haspelmath, M. 1997: From Space to Time, Temporal Adverbials in the World's Languages, LINCOM EUROPA Munchen- Newcastle .
- Illum, 2-8-2015, http: //www.illum.com.mt.
- Kahn, C. 1979 : The Art and Thought of Heraclitus, Cambridge University Press.
- Levinson, S .2003: Space in Language and Cognition, Explorations in Cognitive Diversity, Cambridge University Press.
- Mclure, R. 2015: The Philosophy of Time : Time before Times, Routledge.
- Montello, D. 2001, Spacial Cognition, in Smelser, N. & Baltes, B. (eds), International Encyclopedia of the Social and Behavioral Sciences, Oxford Pergamon Press.
- O'Neil, W. M. 1975: Time and the Calendars, Sydney University Press.
- Sinha, C. & Berbardez, E. 2015: Space, Time, And Space-Time Metaphors. maps and fusions, in Sharifian, F. (Ed.) The Routledge Handbook of Language and Culture, New York : Routledge, pp309-324.
- Sinha, V. Sinha, C. Sampaio, W. Zinken, J. 2012 : Event – based time intervals in an Amazonian Culture, in Filipovic ; L. & Jaszczolt, K. : Space and time in Languages and Cultures : Language Culture and cognition, John Benjamins Publishing Company.
- Talmy, L. 2000 : Toward a Cognitive Semantics, Vol. 1, Concept Structuring Systems, MIT Press.
- Tenbrink, Thora, 2007: Space, Time and the Use of Language : An Investigation of Relationships, Walter De Gruyter.
- Traugott, E. 1978: On the Expression of Spatio- temporal Relations in Language, in Goldberg, J. Universals of Human Language, Vol. 3, Word Structure, Stanford University Press.
- Waller, D. & Nadel, L. 2013 : Handbook of Spatial Cognition, American Psychological Association.